ليباركوه ، فكانت الدماء تسيل عندها وتتناثر عليها ، فيحط عليها الذباب ، ويأخذ من هذه الدماء على أرْجُله النحيفة هذه أو على أجنحته أو على خرطومه ، فتحداهم أن يعيدوا من الذباب ما أخذه ، وهذه مسألة أسهل من مسألة الخَلْق .

ولك أنْ تُجرِّب أنت هذه العملية ، إذا وقع ذباب على العسل الذى أمامك ، فلا بُدَّ أن يأخذ منه شيئاً ولو كان ضئيلاً لا يُدرك ولا يُوزَن ولا تكاد تراه ، لكن أتستطيع أنْ تُمسك الذبابة وتردّ ما أخذتْ منك ؟

لذلك يقول تعالى بعدها : ﴿ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ (٧٣)﴾ [الحج] يعنى : كلاهما ضعيف ، فالذباب فى ذاته ضعيف وهم كذلك ضعفاء ، بدليل أنهم لن يقدروا على هذه المسألة ، لكن هناك ضعيف يدَّعى القوة ، وضعيف قوته فى أنه مُقرٌّ بضعفه ، فالذباب وإنْ كان ضعيفاً إلا أن الله تعالى قال فيه : ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلاً مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا .. (٢٦)﴾ [البقرة] يعنى : ما فوقها فى الصِّغر ، ليس المراد ما فوقها فى الكبر كالعصفور مثلاً .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ (٧٤)﴾

يعنى : هؤلاء الكفار الذين عبدوا من دون الله آلهة لا تستطيع أن تخلق ذباباً ، ولا تستطيع حتى أنْ تردَّ من الذباب ما أخذه ، هؤلاء ما عرفوا لله قَدْره ، ولو عرفوا قَدْر الله ما عبدوا غيره .

والقَدْر : يعنى مقدار الشىء ، وقلنا : إن مقادير الأشياء تختلف

حسب ما تريده من معرفة المقادير ، فالطول مثلاً له مقياس يُقَاس به مقدار الطول ، لكن هذا المقياس يختلف باختلاف المقيس ، فإنْ أردتَ أنْ تقيسَ المسافة بين القاهرة والأسكندرية مثلاً لا تستخدم المللى أو السنتيمتر ولا حتى المتر ، إنما تستخدم الكيلومتر ، فإنْ أردت شراء قطعة من القماش تقول متر ، أما إنْ أردتَ صورة شخصية تقول سنتيمتر .

إذن : لكل شيء مقدار يُقدَّر به ، ومعيار يُقاس به ، فإنْ أردتَ المسافة تقيس الطول ، فإنْ أردت المساحة تقيس الطول فى العرض ، فإنْ أردتَ الحجم تقيس الطول فى العرض فى الارتفاع ، الطول بالمتر والمساحة بالمتر المربع ، والحجم بالمتر المكعب . كذلك فى الوزن تُقدِّره بالكيلو أو الرطل أو الجرام .. إلخ .

وقدر تأتى بمعنى : ضيَّق ، كما جاء فى قوله تعالى : ﴿ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ .. ﴿١٦﴾ ﴾ [الفجر]

ويقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ .. ﴿٧﴾ ﴾ [الطلاق]

والمقدار كما يكون فى الماديات يكون أيضاً فى المعنويات ، فمثلاً تعبر عن الزيادة المادية تقول : فلان كبر يعنى شَبَّ وزاد ، أما فى المعنويات فيقول الحق سبحانه : كَبُر ﴿ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ .. ﴿٥﴾ ﴾ [الكهف] يعنى : عَظُمتْ .

والحق ـ تبارك وتعالى ـ ليس مادة ؛ لأنه سبحانه فوق المادة ، فمعنى المقدار فى حقه تعالى عظمته فى صفاتِ الكمال فيه ﴿ مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ .. ﴿٧٤﴾ ﴾ [الحج] ما عظَّموه حَقَّ التعظيم الذى ينبغى له ،

وما عرفوا قَدْره ، ولو عرفوا ما عبدوا غيره ، ولا عبدوا أحداً معه من هذه الآلهة التي لا تخلق ذباباً ، ولا حتى تسترد ما أخذه منهم الذباب ، فكيف يُسوُّون هؤلاء بالله ويقارنونهم به عز وجل ؟ إنهم لو عرفوا لله تعالى قَدْره لاستحيوا من ذلك كله .

ثم تُذيِّل الآية بقوله تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾﴾ [الحج] فما مناسبة هاتين الصفتين للسياق الذى نحن بصدده ؟

قالوا : لأن الحق - سبحانه وتعالى - تكلَّم فى المثَل السابق عمَّنْ انصرفوا عن عبادته سبحانه إلى عبادة الأصنام وقال : ﴿ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾﴾ [الحج] فقال فى مقابل هذا الضعف إن الله لقويٌّ ، قوة عن العابد ؛ لأنه ليس فى حاجة إلى عبادته ، وقوة عن المعبود لأنه لو شاء حَطَّمه ، وما دُمْتم انصرفتم عن الله وعبدتم غيره ، فهذا فيه مُضارَّة ، وكأن هناك معركة ، فإنْ كان كذلك فالله عزيز لا يغالب .

والآية : ﴿مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ .. ﴿٧٤﴾﴾ [الحج] وردتْ فى عدة مواضع فى كتاب الله ، منها : ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ .. ﴿٩١﴾﴾ [الأنعام] فلم يعرفوا لله تعالى قَدْره لأنهم اتهموه ، وله سبحانه كمال العدل ، فكيف يُكلف عباده بعبادته ، ولا يبلغهم برسول ؟ وهو سبحانه القائل : ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾﴾ [الإسراء]

فحين يقولون : ﴿مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ .. ﴿٩١﴾﴾ [الأنعام] كأنهم يصفُون الحق سبحانه بأنه يُعذِّب الناس دون أنْ يُبلِّغهم بشيء . ويردّ عليهم فى هذه المسألة : ﴿قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ .. ﴿٩١﴾﴾ [الأنعام]

وفي موضع آخر : ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَـوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ .. (٦٧)﴾ [الزمر]

ونقول : قَدَّرَه حقَّ قدره ، وقَدَرَه قَدْرَه ، كأن الأمور تختلف في تقدير الأشياء ، فمثلاً تنظر إلى حجرة فتقول : هذه تقريباً ٥×٤ هذا تقدير إجمالي تقريبي ، إنما إنْ أخذت المقياس وقدَّرْتَ تقديراً حقيقياً ، فقد تزيد أو تنقص ، فالأول تقول : قدَّرْت الحجرة قَدْرها . والآخر تقول : قدرت الحجرة حقَّ قَدْرها .

وعليه فإنك إنْ أردت أنْ تُقدِّر الله تعالى حَقَّ قَدْره فإنك تقدِّره على قَدْر استيعاب العقل البشري ، إنما قَدْره تعالى حقيقة فلا تحيط به ؛ لأن كمالاته تعالى لا تتناهى ولا تُدرك إدراكاً تاماً .

ومن ذلك ما سبق أن ذكرناه عن علم اليقين وعين اليقين وحقّ اليقين . ولما نزل قوله تعالى : ﴿يَـأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ .. (١٠٢)﴾ [آل عمران] قال بعض الصحابة(١) : ومَنْ يقدر على ذلك ، إنها مسألة صعبة أن نتقي الله التقوى الكاملة التي يستحقها عز وجل ، فأنزل الله تعالى : ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ .. (١٦)﴾ [التغابن] ونزلت : ﴿لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا .. (٢٨٦)﴾ [البقرة]

---

(١) عن سعيد بن جبير وهو من كبار التابعين قال : لما نزلت هذه الآية اشتد على القوم العمل ، فقاموا حتى ورمت عراقيبهم ، وتقرحت جباههم ، فأنزل الله تخفيفاً على المسلمين ﴿فاتقوا الله ما استطعتم (١٦)﴾ [التغابن] . فنسخت الآية الأولى . [أخرجه ابن أبي حاتم] .
وابن عباس في قوله ﴿اتقوا الله حق تقاته (١٠٢)﴾ [آل عمران] قال : لم تنسخ ولكن ﴿حق تقاته (١٠٢)﴾ [آل عمران] أن يجاهدوا في الله حق جهاده ولا تأخذهم في الله لومة لائم ، ويقوموا لله بالقسط ولو على أنفسهم وآبائهم وأمهاتهم . [أخرجه ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والنحاس في ناسخه] . أوردهما السيوطي في الدر المنثور ٢/٢٨٣ .

وكان النبي ﷺ إذا أثنى على الله تعالى يقول : « سبحانك ، لا نحصى ثناءً عليك ، أنت كما أثنيت على نفسك »[1] .

لماذا ؟ لأنه لا يملك أحد مهما أُوتي من بلاغة الأسلوب أنْ يُثنى على الله الثناء المناسب الذى يليق به سبحانه ، ومن رحمة الله تعالى بعباده أن تحمل عنهم هذه المسألة فأثنى الحق سبحانه على نفسه ، وعلَّمنا كيف نثني عليه سبحانه ، فإذا ما تحدث البليغ وأثنى على الله بفنون القول والثناء ، فإن العييَّ الذى لا يجيد الكلام يطمئن حيث يُثنى على ربه بما علمه من الثناء ، وما وضعه من صيغ يقولها الفيلسوف ، ويقولها راعي الشاة .

ولولا أن الله تعالى علَّمنا صيغة الحمد في سورة الفاتحة فقال : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝٢ ﴾ [الفاتحة] ما تعلمنا هذه الصيغة ، فتعليم الله لعباده صيغة الحمد في ذاتها نعمة تستحق الحمد ، والحمد يستحق الحمد ، وهكذا في سلسلة لا تنتهي ، ليظل الحق - تبارك وتعالى - محموداً دائماً ، ويظل العبد حامداً دائماً .

وبعد أن تكلم الحق سبحانه عن مسألة الألوهية وما ينبغي لها من صفات الكمال المطلق ، وحذر أنْ نُدخل عليها ما ليس منها وما لا يستحقها ، وهذه قمة العقائد ، وبعد أن نؤمن بالإلهيات بهذا الصفاء ونُخلِّص إيماننا من كل ما يشوبه لا بُدَّ من البلاغ عن هذه القوة الإلهية التى آمنا بها ، والبلاغ يكون بإرسال الرسل .

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٦/٥٨ ، ١٢٠) وكذا مسلم في صحيحه (٤٨٦) من حديث عائشة رضى الله عنها قالت : فقدت رسول الله ﷺ ليلة من الفراش فالتمسته فوقعت يدى على بطن قدميه وهو في المسجد وهما منصوبتان وهو يقول : « اللهم أعوذ برضاك من سخطك ، وبمعافاتك من عقوبتك ، وأعوذ بك منك ، لا أحصى ثناء عليك ، أنت كما أثنيت على نفسك » .

لذلك قال سبحانه :

﴿ ٱللَّهُ يَصۡطَفِي مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلٗا وَمِنَ ٱلنَّاسِۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٞ ٧٥ ﴾

إذن : المرحلة الثانية في الإيمان بعد الإيمان بالقمة الإلهية الإيمان بالرسل ﴿ اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً وَمِنَ النَّاسِ .. ٧٥ ﴾ [الحج] والاصطفاء : اختيار نخبة من كثير ، واختيار القليل من الكثير دليل على أنها الخلاصة والصفوة ، كما يختلف الاصطفاء باختلاف المصطفي ، فإنْ كان المصطفِي هو الله تعالى فلا بُدَّ أنْ يختار خلاصة الخلاصة .

والاصطفاء سائر في الكون كله ، يصطفى من الملائكة رسلاً ، ومن الناس رسلاً ، ويصطفى من الزمان ، ويصطفى من المكان ، كما اصطفى رمضان من الزمان ، والكعبة من المكان . ولم يجعل الحق سبحانه الاصطفاء لتدليل المصطفى على غيره ، إنما ليُشيع اصطفاءَه على خَلْق الله ، فلما اصطفى رمضان على سائر الزمن - لا ليدلل رمضان - إنما لتأخذ منه شحنة تُقوِّى روحك ، وتُصفِّيها بقية الأيام ، لتستفيد من صالح عملك فيها .

وقد يتكرر الاصطفاء مع اختلاف متعلّق الاصطفاء ؛ لذلك وقف المستشرقون عند قول الله تعالى : ﴿ يَـٰمَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ ٤٢ ﴾ [آل عمران]

يقولون : ما فائدة تكرار الاصطفاء هنا ؟ ولو تأملنا الآية لوجدنا فَرْقاً بين الاصطفاء الأول والآخر : الاصطفاء الأول اصطفاء ؛ لأنْ

تكونى عابدة تقية متبتلة منقطعة فى محرابك لله ، أما الاصطفاء الآخر فاصطفاء على نساء العالمين جميعاً ، بأن تكونى أماً لمولود بلا أب ، فمُتعلَّق الاصطفاء - إذن - مختلف .

وتنقسم الملائكة فى مسألة الاصطفاء إلى ملائكة مُصْطفاة ، وملائكة مُصْطَفٍ منها . وفى آية أخرى يقول تعالى : ﴿ جَاعِلِ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً ① ﴾ [فاطر] يعنى : كلهم لهم رسالة مع عوالم أخرى غيرنا .

أما فى الآية التى معنا ، فالكلام عن الملائكة الذين لهم صلة بالإنسان أمثال جبريل وميكائيل وإسرافيل وعزرائيل ، والحفظة الكاتبين والمكلفين بحفظ الإنسان ، فالله تعالى يصطفى هؤلاء ، أما الباقون منهم فالله مصطفيهم لعبادته فهم مُهيَّمون ، لا يدرون عن هذا الخلق شيئاً ، وهم الملائكة العالون الذين قال الله عنهم فى الحديث عن إبليس : ﴿ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ ⑦⑤ ﴾ [ص] يعنى : الذين لم يشملهم الأمر بالسجود ؛ لأن لهم مهمة أخرى .

ثم يقول تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ⑦⑤ ﴾ [الحج] السمع يتعلق بالأصوات ، والبصر يتعلق بالأفعال ، وهما كما قلنا عُمْدة الحواسّ كلها ، والحق سبحانه فى قوله : ﴿ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ⑦⑤ ﴾ [الحج] يُبيِّن لنا أن رسله سيُواجَهُون بأقوال تؤذيهم واستهزاء ، وسيُقابلون بأفعال تعرقل مسيرة دعوتهم ، فليكُنْ هذا معلوماً حتى لا يفُتّ فى عَضُدهم ، وأنا معهم سميع لما يُقال ، بَصير بما يفعل ، فهُمْ تحت سمعى وبصرى وكلاءتى .

﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ⑦⑥ ﴾

﴿مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ (٧٦)﴾ [الحج] ما أمامهم ، ويعلم أيضاً ما خلفهم ، فليعمل الإنسان ما يشاء ، فعلْم الله محيط به .

﴿وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ (٧٦)﴾ [الحج] فالمرجع فى النهاية إليه سبحانه ، فالحق ـ تبارك وتعالى ـ لم يخلق خَلْقه ليتركهم هَمَلاً ، إنما خلقهم لحكمة ، وجعل لهم نهاية يُجازَى فيها كُلٌّ بعمله ، فمَن تعب ونصب فى سبيل دعوة الله وتحمّل المشاقّ فى مساندة رسل الله فله جزاؤه ، ومَنْ جابههم وعاندهم سواء بالأقوال السَّابّة الشاتمة المستهزئة ، أو بالأفعال التى تعوق دعوتهم ، فله أيضاً ما يستحق من العقاب .

وبعد أن حدَّثنا ربنا عز وجل عن الإلهيات وعن الرسل التى تُبلِّغ عنه سبحانه ، يُحدِّثنا عن المنهج الذى سيأتون به لينظم حركة حياتنا ، هذا المنهج موجز فى افعل كذا ، ولا تفعل كذا ، وهو لا يشمل فى أوامره ونواهيه كل حركات الحياة . فالأوامر والنواهى محصورة فى عدَّة أمور ، والباقى مباح ؛ لأن الله تعالى وضع الأوامر والنواهى فى الأصول التى تعصم حركة الحياة من الأهواء والنزوات ، وترك الباقى لاختيارك تفعله على أىِّ وجه تريد .

لذلك نرى العلماء يجتهدون ويختلفون فى مثل هذه الأمور التى تركها الله لنا ، ولو أراد سبحانه لأنزل فيها حكماً محكماً ، لا يختلف عليه أحد . ولك أن تقول : ولماذا ترك الحق سبحانه هذه الأمور تتضارب فيها الأقوال ، وتختلف فيها الآراء ، وتحدث فيها نزاعات بين الناس ؟

قالوا : هذا مراد الله ؛ لأن الله تعالى خلق الإنسان مُسخَّراً فى أشياء ، ومختاراً فى أشياء أخرى ، فللناس أن يتركوا المجتهد يجتهد

ما وسعه الاجتهاد ، ثم يحكمون على ما وصل إليه أنه حق ، وآخر يجتهد ويقررون أنه باطل ؛ لأن الله لو أراده على لون واحد لقاله ، إنما تركه محتملاً للآراء .

إذن : أراد سبحانه أن تكون هذه الآراء لأن الإنسان كما هو محكوم بقهر فى كثير من الكونيات وله اختيار فى بعض الأمور ، كذلك الحال فى التكليف ، فهو مقهور فى الأصول التى لو حاد عنها يفسد العالم ، ومختار فى أمور أخرى يصحّ فِعْلها ويصحّ تَرْكها .

يقول تعالى فى هذا المنهج :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرْكَعُواْ وَٱسْجُدُواْ وَٱعْبُدُواْ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُواْ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۩ (٧٧) ﴾

النداء فى ضَرْب المثل السابق[1] كان للناس كافَّة ؛ لأنه يريد أنْ يلفت عُبَّاد الأصنام إلى هذا المثَل ، ويُسْمعهم إياه ، أمَّا هنا فالكلام عن منهج ودستور مُوجَّه ، خاصّة إلى الذين آمنوا ، لأنه لا يُكلِّف بالحكم إلا مَنْ آمن به ، أما مَنْ كفر فليس أهْلاً لحمل هذه الأمانة ؛ لذلك تركه ولم ينظم له حركة حياته . وكما قلنا فى رجل المرور أنه يساعد مَن استعان به ووثق فيه ، فيدلّه ويرشده ، أما مَنْ شكّ فى كلامه وقلّل من شأنه يتركه يضل فى مفترق الطرق .

فإذا ناداك ربك بما يكلفك به ، فاعلم أن الجهة مُنفكّة ، كما فى قوله تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا .. (١٣٦) ﴾ [النساء]

وقد اعترض على أسلوب القرآن فى هذه الآية بعض الذين

---

(١) يقصد قوله تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ .. (٧٣) ﴾ [الحج]

يأخذون الآيات على ظاهرها ، يقولون : كيف يخاطبهم بيأيها الذين آمنوا ثم يقول : آمنوا ، كيف وهم يؤمنون بالفعل ؟

قالوا : المراد يا أيها الذين آمنوا قبل سماع الحكم الجديد ظلُّوا على إيمانكم في الحكم الجديد ، واستمرّوا على إيمانكم ؛ لذلك إذا طلبتَ شيئاً ممَّنْ هو موصوف به فاعلم أن المراد الدوام عليه .

كما أن هناك فَرْقاً بين الإيمان بالحكم وبين تنفيذ الحكم ، فقد تؤمن بالحكم أنه من الله ولا تشكّ فيه ولا تعترض عليه ، لكنك لا تنفذه وتعصاه ، فمثلاً في الحج يقول تعالى : ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ..﴿٩٧﴾﴾ [آل عمران] الذى لله تعالى على عباده أنْ يحجوا البيت ﴿مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً ﴿٩٧﴾﴾ [آل عمران] وهذا شرط ضروري ، فلا تكليفَ بلا استطاعة ، ثم يقول : ﴿وَمَن كَفَرَ ﴿٩٧﴾﴾ [آل عمران]

فهل يعني هذا أن مَنْ لم يحج فهو كافر ؟

قالوا : لا ، لأن المراد : لله على الناس حكم يعتقده المؤمن ، بأن لله على الناس حج البيت ، فمن اعتقد هذا الاعتقاد فهو مؤمن ، أما كونه ينفذه أو لا ينفذه هذه مسألة أخرى .

ثم يبدأ أول ما يبدأ في التكليف بمسألة الصلاة : ﴿ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ..﴿٧٧﴾﴾ [الحج] لقد جاء الرسل من عند الله بتكاليف كثيرة ، لكن خَصَّ هنا الصلاة لأنها التكليف الذي يتكرر كل يوم خمس مرات ، أما بقية التكاليف فهي موسمية : فالصوم شهر في العام كله ، والحج مرة في العمر كله لمن استطاع ، والزكاة عند خروج المحصول لمن يملك النصاب أو عند حلول الحَوْل .

إذن : تختلف فريضة الصلاة عن باقي الفرائض ؛ لذلك خَصَّها

رسول الله ﷺ في قوله : « العهد الذى بيننا وبينهم الصلاة ، فمَنْ تركها فقد كفر »[(١)] .

ويقول : « الصلاة عماد الدين »[(٢)] .

وخصَّها الحق - تبارك وتعالى - بظرف تشريعى خاص ، حيث فُرِضت الصلاة بالمباشرة ، وفُرِضت باقى الفرائض بالوحى .

وضربنا لذلك مثلاً - ولله المثل الأعلى - قلنا : إن رئيس العمل يمكن أن يرسل لك ورقة يقول : افعل كذا وكذا ، فإنْ كان أمراً هاماً اتصل بك تليفونياً ، وأخبرك بما يريد لأهميته ، فإنْ كان الأمر أهم من ذلك وجاء من جهة أعلى يقول لك : تعال عندى لأمر هام ، ويُكلِّفك به مباشرة ، وكذلك على حسب الأهمية يوجد ظرف التشريع .

فالصلاة لم تأت بالوحى كباقى الفرائض ، إنما جاءت مباشرة من المُوحى سبحانه وتعالى ؛ لأنها ستكون صلة بين العبد وربه ، فشاء أن يُنزِّهَها حتى من هذه الواسطة ، ثم ميَّزها على غيرها من التكاليف ، فجعلها الفريضة التى لا تسقط عن المسلم بحال أبداً . فقد تكون فقيراً فلا تلزمك الزكاة ، وغير مستطيع فلا يلزمك حج ، ومريض أو مسافر فلا يلزمك صوم .

أما الصلاة فلا يُسقطها عنك شىء من هذا كله ، فإنْ كنت غير قادر على القيام فلك أنْ تُصلِّى قاعداً أو مضطجعاً أو راقداً ، تشير

---

(١) أخرجه الترمذى فى سننه (٢٦٢١) ، والنسائى فى سننه (١/٢٣١) من حديث عبد الله بن بريدة عن أبيه . قال الترمذى : حديث حسن صحيح غريب .

(٢) قال الحافظ العراقى فى تخريجه للإحياء (١/٢٤٧) : « رواه البيهقى فى الشُّعَب بسند ضعَّفه من حديث عمر » وقال الملا على القارى فى « الأسرار المرفوعة » (حديث ٥٧٨) قال ابن الصلاح فى مشكل الوسيط : إنه غير معروف . وقال النووى فى التنقيح : إنه منكر باطل ، لكن رواه الديلمى عن على كما ذكره السيوطى فى الدرر المنتثرة (ح ٢٧٩) .

بطرفك لركوعك وسجودك ، ولو حتى تجرى أفعال الصلاة على قلبك ، المهم أن تظلّ ذاكراً لربك متصلاً به ، لا يمر عليك وقت إلا وهو سبحانه فى بالك .

وقلنا : إنّ ذكر الله فى الأذان والإقامة والصلاة ذكْر دائم فى كل الوقت لا ينقطع أبداً ، فحين تصلىّ أنت الصبح مثلاً غيرك يصلى الظهر ، وحين تركع غيرك يسجد ، وحين تقول : بسم الله الرحمن الرحيم . غيرك يقول : الحمد لله رب العالمين .. الخ .

فهى عبادة متداخلة دائمة لا تنقطع أبداً ؛ لذلك يقول أحد أهل المعرفة مخاطباً الزمن : يا زمن فيك كل الزمن . يعنى : فى كل جزئية من الزمن الزمن كله ، كأنه قال : يا ظُهْر ، وفيك العصر ، وفيك المغرب ، وفيك العشاء . وهكذا العالم كله يدور بعبادة لله لا تنتهى .

وذكر من الصلاة الركوع والسجود ؛ لأنهما أظهر أعمال الصلاة ، لكن الركوع والسجود حركات يؤديها المؤمن المخلص ، ويؤديها المنافق ، وقد كان المنافقون أسبق الناس إلى الصفوف الأولى ؛ لذلك أراد الحق سبحانه أنْ يُميِّز هذا من هذا ، فقال : ﴿وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ..(٧٧)﴾ [الحج]

فليست العبرة فى حركات الركوع والسجود ، إنما العبرة فى التوجّه بها إلى الله ، وإخلاص النية فيها لله ، وإلا أصبحت الصلاة مجرد حركات لا تعدو أن تكون تمارين رياضية كما يحلو للبعض أن يقول : الصلاة فيها تمارين رياضية تُحرِّك كل أجزاء الجسم ، نعم هى كما تقولون رياضة ، لكنها ليست عبادة ، العبادة أن تؤديها لأن الله تعالى أمرك بها .

ثم يقول تعالى : ﴿وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٧٧)﴾ [الحج]

والخير كلمة عامة تشمل كل أوامر التكليف ، لكن جاءت مع الصلاة على سبيل الإجمال ، لأن ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب ، فالخير - إذن - كلمة جامعة لكل ما تؤديه وظائف المناهج من خير المجتمع ؛ لأن المنهج ما جاء إلا لينظم حركة الحياة تنظيماً يتعاون ويتساند لا يتعاند ، فإنْ جاء الأمر على هذه الصورة سَعِد المجتمع بأسْره .

ولا تنْسَ أن المنهج حين يُضيِّق عليك ويُقيِّد حركتك يفعل ذلك لصالحك أنت ، وأنت المستفيد من تقييد الحركة ؛ لأن ربك قيَّد حركتك وضيَّق عليك حتى لا تُلحق الشر بالآخرين ، وفي الوقت نفسه ضيَّق على الآخرين جميعاً أن يتحركوا بالشر ناحيتك ، وأنت واحد وهم كثير ، فمن أجل تقييد حركتك قيَّد لك حركة الناس جميعاً ، فمَن الكاسب في هذه المسألة .

الشرع قال لك : لا تسرق وأنت واحد وقال للناس جميعاً : لا تسرقوا منه ، وقال لك : غُضَّ بصرك عن محارم الغير وأنت واحد . وقال لكل غير : غُضُّوا أبصاركم عن محارم فلان ، فكل تكليف من الله للخَلْق يعود عليك ،

فالمعنى : ﴿وَافْعَلُوا الْخَيْرَ (٧٧)﴾ [الحج] أي : الذي لا يأتي منه فساد أبداً ، وما دامت الحركات صادرة عن مراد لهوى واحد فإنها تتساند وتتعاون ، فإنْ كان لك هوى ولغيرك هوى تصادمتْ الأهواء وتعاندت ، والخير : كل ما تأمر به التكاليف المنهجية الشرعية من الحق تبارك وتعالى .

ثم يقول سبحانه : ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٧٧)﴾ [الحج] لكن ، أين سيكون هذا الفلاح : في الدنيا أم في الآخرة ؟

الفلاح يكون في الدنيا لمن قام بشرع الله والتزم منهجه وفعل

الخير ، فالفَلاح ثمرة طبيعية لمنهج الله فى أىّ مجتمع يتحرك أفراده فى اتجاه الخير لهم وللغير ، مجتمع يعمل بقول رسول الله ﷺ : « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه »(١) وعندها لن ترى فى المجتمع تزاحماً ولا تنافراً ولا ظلماً ولا رشوة .. الخ هذا الفلاح فى الدنيا ، ثم يأتى زيادة على فلاح الدنيا فلاح الآخرة .

إذن : لا تظنوا التكاليف الشرعية عبْئاً عليكم ؛ لأنها فى صالحكم فى الدنيا ، وبها فلاح دنياكم ، ثم يكون ثوابها فى الآخرة مَحْض الفضل من الله .

وقد نبَّهنا النبى ﷺ إلى هذه المسألة فقال : « لا يدخل أحدكم الجنة بعمله قالوا : ولا أنت يا رسول الله ؟ قال : ولا أنا ، إلا أنْ يتغمّدنى الله برحمته »(٢) ذلك لأن الإنسان يفعل الخير فى الدنيا لصالحه وصالح دنياه التى يعيشها ، ثم ينال الثواب عليها فى الآخرة من فضل الله كما قال تعالى : ﴿ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ ﴿١٧٣﴾ ﴾ [النساء]

وقوله تعالى : ﴿ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٧٧﴾ ﴾ [الحج] نعرف أن لعل أداة للترجى ، وهو درجات بعضها أرْجى من بعض ، فمثلاً حين تقول : لعل فلاناً يعطيك ، فأنت ترجو غيرك ولا تضمن عطاءه ، فإنْ قلت : لعلِّى أعطيك . فالرجاء - إذن - فى يدك ، فهذه أرجى من سابقتها ، لكن ما زلنا أنا وأنت متساويين ، وربما أعطيك أولاً ، إنما حين تقول : لعل الله يعطيك فقد رجوْتَ الله ، فهذه أرجى من سابقتها ، فإذا قال الله تعالى بذاته : لعلى أعطيك فهذا أقوى درجات الرجاء وآكدها ؛ لأن الوعد من الله والرجاء فيه سبحانه لا يخيب .

---

(١) متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (١٣) ، ومسلم فى صحيحه (٤٥) كتاب الإيمان عن أنس بن مالك رضى الله عنه .

(٢) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٤٦٣) ، وكذا مسلم فى صحيحه (٢٨١٦) عن أبى هريرة رضى الله عنه .